

الفصل الثالث

النضال في سبيل الوحدة

كانت الازمة التي انقضت على العالم الرأسمالي ابتداء من ١٩٢٩ تفوق كثيراً بقوتها ونتائجها جميع الازمات الدورية السابقة . فقد تدنى الانتاج العالمي — باستثناء انتاج الاتحاد السوفياتي — بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٢ بنسبة ٤٠ بالمئة ، والتجارة العالمية تدنت بنسبة ٦٠ بالمئة . وكان بعض المنتجين يتلفون الخنطة والضأن ويقتلعون فسائل القطن وجذوع الكرم ، ويلقون بالبن الى البحر ، بينماالبؤس يتزايد ، والمجاعة تتفشى في الهند والصين ، والاحصاءات الرسمية تعترف بوجود ثلاثين مليوناً من العاطلين عن العمل .

وكانت الحواجز الجمركية ترتفع من كل ناحية وصوب . ودورة السلع والبضائع تتباطأ وتتحف ثم تتوقف ، والبلاد الاشد قوة تتنازع فيما بينها اسواق البلاد الضعيفة ، واحتمالات نشوب الحرب العالمية تشتد وتتضاعف .

وأملت الازمة بالمنهزمين في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ بخاصة ،
فتدنى الانتاج الصناعي في المانية حتى بلغ ارقاماً مخوفة ،
وكشرت الازمة الزراعية عن نواجزها ؛ في هذه البيئة رأينا
نمو هتلرية وترعرعها .

وفي الانتخابات الالمانية عام ١٩٣٠ ظل عدد الاصوات
العمالية على ما كان عليه تقريباً ، وتحول بعض اصوات
الاشتراكيين لصالح الشيوعيين ، وتدهورت احزاب الوسط
البورجوازية ومنيت بهزيمة نكراء . ولكن اتباع هتلر نالوا ٦
ملايين صوت .

لقد صدف الجماهير البورجوازية الصغيرة ، بتأثير الازمة ،
عن الاحزاب البورجوازية التقليدية ولم تتجه شطر الطبقة العاملة
المشتتة ، بل انها اتجهت الى الفاشية مخدوعة بتهاويلها وتهويش
زعماؤها .

وكان الحزب الشيوعي الالمانى يواجه الخطر ، ويجهد عبثاً
لخلق جبهة موحدة مع الحزب الاشتراكي .

وكانت الفئات التي تحاول الصمود في وجه الديكتاتورية
الهتلرية الصاعدة تؤكد كلها - ما عدا الشيوعيين - ان القومية
الاشتراكية سيصيبها التفسخ والانحلال عما قريب . وفي انتخابات
تشرين الثاني ١٩٣٣ خسر النازيون مليونين من الاصوات .
فقام الاشتراكيون الديمقراطيون ينادون « بتلاشي الهتلرية »
نهائياً ، وفي صحيفة « الشعبي » كتب ليون بلوم :

« لقد سدت ابواب الحكم ، بعد الآن ، في وجه النازيين .
ولن تقوم لهم قائمة ، لقد ظفرت الاشتراكية الديمقراطية بهتلر » .
وبعد مضي شهرين على هذه « النبوءة » العظيمة ، اي في ٣٠
كانون الثاني ١٩٣٣ دعا هندنبورغ هتلر الى تسلم الاحكام .

من هذه الوقائع يسعنا ان نستخلص ثلاث فوائد :

١ - لقد ضمنت جمهورية ويمار انقاذ الرأسمالية وخنقت ثورة
١٩١٨ ودمرت باسم « الديمقراطية » ، طليعة الطبقة العاملة
المناضلة ، وهي دعامة الديمقراطية الصحيحة .

٢ - أيدت الاشتراكية الديمقراطية والنقابات الاصلاحية
سياسة « التضحيات » والتعدي على الحريات ، تلك السياسة التي
فرضتها الحكومات البورجوازية ، والاحزاب الاشتراكية
الديموقراطية هي التي شقت الطريق للفاشية ، بحجة اختيارها
الطريق « الاقل سوءاً » .

٣ - ان الاشتراكية الديمقراطية وزعماء النقابات برفضهم
الجهة الموحدة للطبقة العاملة قد عزلوا البروليتاريا وجردوها
من سلاحها .

وانها لدروس قاسية ، كان علينا ان لا نهملها ، نحن المناضلين
في صفوف الطبقة العاملة في فرنسا ! ألم نكن معرضين ، في
مستقبلنا القريب ، لمثل هذا الموقف ؟ ألم ينهض « مفكرون »
فرنسيون وساسة قوميون ، ينادون بتعميق الفردية الفرنسية ،

وتفوق شعبنا آخر الشكبر المختل ، على الجماهير الألمانية المتحدة
المنعقدة على الطاعة العسكرية العمياء والانضباط السلبي الاحمق ؟
أجل . كان من المنتظر ان تعود أيام الامبراطورية الثانية ،
وحركة مبدأ القوميات ، و « النظام المعنوي » و « البولانجية »
النخ ... النخ ... فاذا لم تفزع الطبقة العاملة الأعيب اعدائها
ومؤامراتهم ، واذا افسحت المجال في فرنسا للتحديات والجرائم
التي نهض رفيقنا ديمتروف يكشف عنها القناع في محكمة لينبرغ
(١٩٣٣) فان بلادنا ، قد تتعرض ، هي ايضاً ، لمأساة دامية ،
وديكتاتورية فاشية ، تذبح العمال ، وتعطل الحريات وتسلم
فرنسا لهتلر وموسوليني .

وبدا الاقتصاد الفرنسي يعاني الازمة ، بعد ان أفاد مدة
طويلة من ظروف مؤقتة : وجود اسواق داخلية واسعة ،
ومعدل وسط لثبات الفرنك ، يتيح التصدير على نحو واسع .
ولكن هذه الجزيرة الصغيرة من الرخاء سرعان ما ابتلعها
امواج الازمة المتصاعدة .

وبين سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٥ تدنى الانتاج الفرنسي ٣٣ بالمئة ،
واتسعت البطالة ، وتدنى الدخل القومي تدنياً عاماً بمعدل ٣٠
بالمئة ، وزادت الازمة في ظاهرات التمرکز الرأسمالي ، وفرض
كارتل الصناعات المتحدة اسعاره الحصرية ، جانباً ارباحاً فاحشة .

وعلى العكس كانت الطبقات المتوسطة تفتقر شيئاً فشيئاً ،
وبين ١٩٣٠ و ١٩٣٢ نقص عدد صغار التجار مئة الف تاجر .

وحملت الازمة البورجوازيين الصغار الى نط من الحياة الاقتصادية الخطرة التي يعوزها الضمان ، ويبدو مستقبلها قائماً .

وكانت هذه الطبقات تفقد شيئاً فشيئاً اوهامها في حريتها الاجتماعية والسياسية . ام البروليتاريه ، وقد مستها الازمة بأعظم الاذى ، فكانت تناضل في سبيل شروط معيشتها ، انها حال صورها ماركس ، فأحسن تصويرها :

« كلما تدنى عدد سلاطين رأس المال ، الذين يتفردون بجميع فوائد هذه المرحلة من التطور الاجتماعي ، ويحصرونها بأيديهم ، ازداد البؤس والاضطهاد والرق ، والانحلال ، والاستثمار ، ولكن تزداد ايضاً مقاومة الطبقة العاملة ، المتصاعدة بلا انقطاع ، المتعاظمة اكثر فأكثر ، الموحدة ، المنظمة بسبب من آلية الانتاج الرأسمالي نفسه (١) »

وكان الاغنياء يريدون ان يحلوا الازمة على حساب العمال . فطالبوا بسياسة تحقق تخفيض الاجور ، وتفرض الحماية الجمركية ، ضد البضاعة الاجنبية ، وتفرض حصاراً داخلياً حقيقياً ، ونظام كفاية اوتارسية اقتصادية في « امبراطورية فرنسية مؤلفة من ١٠٠ مليون من السكان ، » وكان الرأسماليون يطمحون الى صيغة نظام سياسي يتيح لهم بلوغ هذه الاهداف ؛ وهذه الصيغة هي الفاشية .

(١) كارل ماركس - رأس المال الكتاب الاول الجزء الثالث الفصل الثاني والثلاثون .

وكان اصحاب الامتيازات يجهدون ، شأنهم في ألمانيا وإيطاليا ، لكسب الانصار ، بين العناصر المنحلة في البورجوازية الصغيرة والبروليتاريا السفلى ، وكانت الحركة الرجعية قد نظمت صفوفها منذ زمن طويل : فالفاشية تريد استغلال قضية ستافسكي ، وهي فضيحة مالية اشترك فيها بعض رجال الندوة النيابية ، وفجأة كشفت الفاشية عن وجهها الصحيح ، مستسمة لديماغوجية محومة . وفي ٦ شباط ١٩٣٤ هاجم المشاعبون الفاشيون قصر المجلس الوطني ، وكان بعض رجال السراي واساطين السياسة يتقدمون المهاجمين وهم يهتفون « فليسقط المصوص ! » واثر ظهور العصابات المسلحة - الصليبان النارية ، والشبان الملكيين ، وفرق الكتائب القومية ، والفرانسيستية - واعمالهم العدوانية العنيفة ، فدفعت العمال الى الاتحاد بعد ان عجزت عن ذلك خمسة عشر عاماً من العروض والدعوات ! وادى هيجان الفاشيين وجنونهم ودعوتهم الى المذابح ، وصيحاتهم الحاقدة الموجهة الى العمال (كانوا يدعونهم لصوحاً ودهماء !) والمعارك التي اعتمدوا خوضها لتحقيق المؤسسات الجمهورية وتدريس كل ما في البلاد من عناصر الشرف والعافية والكرامة ، ادى كل هذا الى صهر الشعب في كتلة واحدة عازمة على تجنيب فرنسا ويلات الفاشية وذلها .

طردت هذه الحركة الفاشية الراديكاليين من الحكم ، وجاءت بحكومة بين اعضائها يديتان ولافال ، فكتبت صحيفة

رجعية تقول : لقد انتصرت ثورة اليسين .

ولكن لم يكن ذلك الا انتصاراً مؤقتاً ، فان عواقب السادس من شباط جاءت معاكسة تماماً لآمال الحركة الرجعية ومراميها .

وهكذا قدر لنا ان نشهد مولد حدث عظيم على وجه الحرائق التي اشعلتها العصابات الفاشية ، ولم يكن ذلك ديكتاتورية « بيتان » او « لاروك » ، بل اتحاد الطبقة العاملة ، ونشوء الجبهة الشعبية المتحدة . وبوثة رائعة ، ولدى اول اشارة من الحزب الشيوعي ، اندفع عمال باريس ناهضين ، وكان ٢٥٠٠٠ عامل قد صمدوا يوم ٦ شباط للمشاغبين ، وفتحت هذه الحركة الاولى ابواب الامل ، وكان الشيوعيون على حق ، فليست الديكتاتورية الفاشية مرحلة محتومة ، وسنشهد نشوء الجبهة الشعبية الموحدة ، في غمرة الصراع ضد الفاشيين ، والطبقة العاملة الفرنسية ، وقد شددت بالتجارب الالامية قبضتها ، ستدلل على انها حقاً سلبية مناضلي الكومون الالمانية على تقاليدهم الثورية المجيدة .

دعا الحزب الشيوعي البروليتاريا الباريسية الى الرد . وفي التاسع من شباط احتل الطرقات ٥٠٠ ٠٠٠ عامل اشتبكوا في كل مكان مع الشرطة ، طوال خمس ساعات ، من ساحة الجمهورية الى محطة الشرق وكان العمال يهتفون « الجمهوريات السوفياتية في كل مكان ! فلتسقط الفاشية ! » وغادر كثير من العمال

الاشتراكيين مصانعهم وانضموا الى رفاقهم الشيوعيين ، وكان سكان الاحياء الشعبية ، حيث تجري المعارك ، يشدون ازر المتظاهرين . وسقط ستة من العمال في ساحة الشرف ليقطعوا الطريق على الفاشية ، فلنمجد هؤلاء الابطال البروليتاريين ، لقد اثبتت الطبقة العاملة ، في معركة الطليعة هذه ، انها تحسن النضال ، والطلقات النارية التي طرحت ابناء الشعب على بلاط الشوارع الباريسية كان لها في اعماق الجماهير صدى بعيد ، وكان الوف المناضلين الجدد، ومئات الالوف تنهض لتحل محل القتلى . لا ، ان ثمر الفاشية ، ولن يحلي لها العمال الطريق ، وهزيمتها ستكون نتيجة لعمل البروليتاريا ووحدها واتحادها مع الطبقات المتوسطة المهددة مثلها في رفايتها المادية وحرياتها .

بدأ الشيوعيون المعركة ، فادت مبادرتهم الى التمهيد لنجاح الاضراب العام الذي اعلن في ١٢ شباط ١٩٣٤ ، وعودة القوى الشعبية الى التنظيم والاتحاد ، وتوقف ٤ ملايين ونصف المليون عاملا عن اعمالهم . لقد دقت مظاهرة فنان طبول النفير وايقظت الهمم الهاجعة ، وجاء هجوم البروليتاريا فتخطى بقوته اللامتناهية ، الهجوم العادر الذي قامت به العصابات الفاشية ، واثبت هذا الهجوم العمالي ، لحانقي الحرية ان القوة والشجاعة والاتحاد لازالت كلها الى جانب الطبقة العاملة . كانت فرنسا العاملة ، فرنسا القوم الشرفاء ، تنهض لتقاوم الفاشية ، والبؤس والحرب ، وكان العمال الفرنسيون يسرون بقيادة الحزب

الشيوعي الفرنسي ليهدوا عمال العالم جميعاً إلى الوسيلة الناجعة
للمضال ضد الفاشية : وهذه الوسيلة تتركز على تأنيف جبهة
شعبية واسعة مناهضة للفاشية تتجمع حولها الطبقة العاملة .

والتأم المؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعي السوفياتي بين
٢٦ كانون الثاني و ١٠ شباط ١٩٣٤ ، وفي هذا المؤتمر القى
الرفيق ستالين خطاباً نيراً جاء فيه :

« علينا ان لا نعد انتصار الفاشية في المانيا بمثابة شارة
ضعف منيت به البروليتاريا وحسب ، وبمثابة نتيجة حتمية
للخيانة التي أحقتها الاشتراكية الديمقراطية بالطبقة العاملة ،
فشقت الطريق للفاشية ، بل علينا ان نعد هذا الانتصار بمثابة
ظاهرة تدل على ضعف البورجوازية نفسها ، ظاهرة تدل على ان
البورجوازية أصبحت عاجزة عن ممارسة الحكم بالطرق التقليدية
القديمة ، من برلمانية وديمقراطية بورجوازية ، وهذا ما يضطرها
للجوء ، في سياستها الداخلية ، الى ضروب ارهابية في الحكم ،
انها ظاهرة تدل على ان البورجوازية لم تعد تتمتع بالقوة التي
تتيح لها ان تجد مخرجاً لحالتها الراهنة ، على قاعدة من السياسة
الخارجية السلمية ، وهذا ما يحملها على اللجوء الى سياسة
الحرب (١) »

الفاشية هي الحرب ، والنضال ضد الفاشية هو الصراع

(١) ستالين ، قضايا لينينية .

في سبيل السلام . كان الموقف واضحاً جلياً : فمن جهة ، يشتد خطر الازمة الناشئة في العالم ، والتي تدفع الدول الرأسمالية الى التنارع فيما بينها ، خلال معركة لا رحمة فيها ولا هوادة ، ومن جهة ثانية على الصعيد الداخلي ، يجري استعباد الطبقة العاملة ، بدعم اسس الديكتاتورية والارهاب ، لتقوية مؤخرات الجبهات العسكرية في المستقبل .

كانت رغبة الفئات الحاكمة في القضاء على الديمقراطية ، وسياستها العنيفة الارهابية ، توحبان الينا سياستنا ، فكان علينا ان نحمي الديمقراطية ونحمل الطبقات البورجوازية الصغيرة على النضال في سبيل حرياتها المهددة ، ودعوة البروليتاريا لحماية مصالحها الخاصة ، ومصالح الطبقات المتوسطة ، في وقت دعاء ، وهذه وتلك كان يهددهما معاً رأس المال الكبير . كنا بدفاعنا عن الجمهورية ندافع عن الطبقة العاملة ونعهد لها طريق مستقبلها .

ومنذ اوائل سنة ١٩٣٤ بدأنا نشير الى اهمية نشوء جبهة موحدة واسعة ، تجمع الجمهوريين ، والديموقراطيين ، والتحرريين والاشتراكيين والشبوعيين — البروليتاريا والطبقات الوسطى — جبهة يكون من اول اهدافها مجابهة الفاشية ، ولكن القادة الاشتراكيين كانوا يقيمون في وجوهنا الحواجز والعقبات ، وكانوا يقولون : « ان الوحدة العضوية ، باندماج الحزبين ، افضل من وحدة العمل مع المحافظة على استقلال الحزبين ، اذن

فلنحقق الوحدة العضوية ! » فنجيب : « ان افضل طريقة تمهد
لاندماج الحزبين هي وحدة العمل بالذات » والحاز العمال الى
صفوفنا .

وكان بعض القادة الاشتراكيين يريدون ان يحصروا قضية
وحدة البروليتاريا ، تلك القضية العظمى ، في حدود ضيقة تافهة ،
وكانوا يقترحون انهاء المفاوضات ، بميثاق « عدم اعتداء » وما
كانوا يرون في وحدة العمل الا وسيلة لوقفنا عن توجيه النقد
الى احزابهم ، فأجبنا بأن الامر لا يتعلق ببسمة الكبرياء
الشخصية الجريح ، بل بتنظيم النضال المشترك ، وبدلاً من
ميثاق « عدم اعتداء » اقترحنا ميثاقاً لوحدة طبقة .

وكان النضال الموحد قد بدأ في ارجاء البلاد ، وكانت
الارباب تردد صرخة « وحدة العمل » تلك التي اطلقتها عشرات
الالوف من المتظاهرين في فنسات ، في ١٢ شباط ١٩٣٤ ،
وكانت هذه الصرخة تدوي في كل مكان ، حيث يقود الكولونيل
« لاروك » جيوشه المجندة للحروب الاهلية .

وكنّا عازمين على بذل التضحيات الضرورية لتحقيق الوحدة ،
وفي مؤتمرنا الوطني بايفري ، حزيران ١٩٣٤ ، لم يكن يشغلنا
الا فكرة واحدة : الوحدة .

وكان قادة الحزب الاشتراكي يقولون لنا : « لا توجهوا
عروض العمل المشترك الى جماهير حزبنا » بل وجهوها اليها
وحسب . فكنا نجيب : « ليست هذه مشكلة ، فسناطب

اعضاء حزبكم ، ثم نخاطبكم ايضاً ، فيقولون : « كفوا عن انتقادنا » فنجيب : « سنعمد الى انتقاد من لا يحافظ على وحدة العمل ، انتقاداً عنيفاً » .

وكان بعض الاشتراكيين يتهموننا في اخلاصنا ، ولكن ارادتنا الحازمة ، ونياتنا الصافية ، وعنادنا الصامد ، تنفي هذه التهمة وتكذب اصحابها .

كنا نريد الوحدة ، ونطلبها بعناد وحماسة .

ولم تكن المعارك التي سالت فيها ، منذ ٩ شباط ، دماء سبعة عشر شهيداً ، الا البداية . وفي السباق السريع بيننا وبين الفاشية ، كانت البورجوازية ترمي الى حيازة قصب السبق . فاذا لم نتوصل الى بذل جهودنا ، اكثر فاكثراً ، واذا لم نضاعف هذه الجهود مراراً عدة ، في سبيل الجبهة الموحدة ، فقد تكسب الفاشية المعركة ، وتنتصر على الطبقة العاملة ، غير اننا لا نريد ان تتركز دعائم الفاشية في فرنسا .

نريد العمل مهما كان الثمن .

ومهما كان الثمن نريد ان نعمل متحدين !

وكان هؤلاء الذين يريدون المناقشة والتسويق والتأجيل والتحذلق فيما العدو يدق الابواب ، يذكروننا باولئك اللاهوتيين البيزنطيين الذين كانوا يتناقشون في : هل الملائكة ذكور ام اناث ، والعدو على الابواب .

وفي مقاطعة السين عقد الاتحاد الاشتراكي والمنطقة الشيوعية اتفاقاً ، وفي ٢٧ تموز ١٩٣٤ ، وفي غرفة صغيرة من مربع بونفاليه وقع الحزبان الشيوعي والاشتراكي وثيقة «وحدة العمل» . كانت هذه الوثيقة في نظرنا التزاماً مقدساً ، فالاشتراكيون اخوان لنا ، ونحن نعتبط بانتصاراتهم كأنها انتصارات لنا . وكانت اكثرية العمال الاشتراكيين الساحقة تتجاوب من اعماق قلوبها مع مشاعرنا الاخوية ، اما في اتصالاتنا بقادتهم فكان الميثاق في نظرنا بداءة اكثر منه غاية . لقد ركزنا دعائم وحدة الطبقة العاملة ، وعلينا الآن توسيع اتحادنا ليشمل الطبقات المتوسطة ، ولنضمن نحن هزيمة الفاشية .

جهدت في مؤتمر ايفري لتبديد سحب الخلاف بيننا وبين الراديكاليين والجمهوريين المخلصين وكنا نزاعي الموقف الجديد والظروف الناشئة عنه وكنا نؤكد ارادة حزبنا الشيوعي في الدفاع عن الحريات الديمقراطية . ألم يقل انكلز ولينين « بان النظام الجمهوري هو افضل انظمة الحكم للطبقة العاملة في ظل الرأسمالية ؟ » وصرحت ، بعد ، بما صرحت به من قبل خمسة عشر شهراً في المجلس النيابي : « نحن الشيوعيين نحب بلادنا . نحن نحب فرنسا ووطننا ، ارض الثورات التاريخية ، ومهد الانسانية والحريات » وكنا نصرح بان المسألة لم تكن تنحصر في الاختيار بين الشيوعية والفاشية بل بين الفاشية والديموقراطية .

كان لهذه التصريحات في ارجاء البلاد صدى بعيد ، ولم تلبث

الحركة الرجعية ان غيرت مواقعها ووجهت رمايتها وجهة اخرى ،
ففي البدء ، كانت توجه إلينا التهمة « باننا ماركسيون لينينيون ،
اما بعد مؤتمر ايفري ، فشهدنا هذه المهزلة السافرة : اذ وجدت
الماركسية اللينينية حماة لم يكن ينتظرهم احد . حماة يتهموننا
« بنسيان تعاليم ماركس العظيم ولينين الخالد ! » كنا ندافع
عن الحريات الديمقراطية بجرارة وقوة بقدر ما كنا نريد توسيع
هذه الحريات وتعميقها ، وليست ديكتاتورية البروليتاريا ، وهي
الديموقراطية الكاملة التي تشمل الشعب كله ، الا تطبيقاً للكلمة
سان جوست « لا حرية للذين يسفكون دم الحرية ! »

وفي التاسع من اكتوبر ١٩٣٤ وفي الرابع والعشرين منه
تكلمت في قاعة بوليه في باريس ، ثم في نانت ، فدعوت الى
الوحدة في كل جبهة شعبية مشتركة في «سبيل الحبز والحرية والسلام»
واول مرة وضعت هذه الصيغة التي تقود شعب فرنسا الى
النصر ، وقلت ايضاً « ليس صحيحاً انه لا خيار الا بين سياسة
الوحدة القومية ونظام حكم السوفييات . بل ثمة مجال لسياسة
شعبية بوسعها ان تطور الحرية فيما هي تصحح اوضاعها » .

كانت الحركة الرجعية تفهم حق الفهم ان الجبهة الشعبية
تستطيع رد هجمات الفاشية واقتتاح عهد من التقدم السياسي
والاجتماعي في بلادنا ، فحاولت الرجعية ان تلقي الخوف في
قلوب الراديكاليين كما حاولت من قبل ان تستثير مخاوف
الاشتراكيين ، واولئك الذين كانوا الى الامس القريب يشتمون
الراديكاليين نصبوا الآن انفسهم اساتذة وموجهين . وكانوا

يتخذون هجة الجلال والرصانة وهم يشرحون فهم ان ليس
بوسعهم « تلطيخ سمعتهم بالتحادهم مع الشيوعيين » . وكانت
الرجعية تعتمد التهديد آناً والتملق آناً لشق صفوف الحزب
الراديكالي ، وبذلك جهود الجباورة لأحباط مساعي الدسائين
الداعين الى التفرقة ، واعتمدنا معلننا قاعدة ، فلا تتدخل في
الشؤون الداخلية للمنظمات المشتركة في الجبهة الشعبية ، وهكذا
جاهد الشيوعيون في سبيل وحدة صفوف القائلين بالجمهورية .

وعلى اثر انتصار الجبهة الشعبية في الانتخابات البلدية وإزاء
عظمة المهرجانات التي اقيمت في عيد ١٤ تموز ١٩٣٥ لم تعترف
الجماعة الرأسمالية المسيطرة وعملاؤها بالهزيمة بل كانوا يقولون :
استطاعت الجبهة الشعبية ان تنشأ لمقاومة « شيء » ولكنها ستعجز
حتماً في المحافظة على وحدتها « لتحقيق شيء » ايجابي ، وسيبتدء
شمها اذا حاولت صياغته وتنفيذه ، ولا شك في ان صياغة
برامج موحدة تلتزمها الاحزاب الشيوعية والراديكالية
والاشتراكية كانت تلاقي بعض الصعوبات وقد تصبح مستحيلة
التنفيذ اذا تسك كل حزب ببرنامجه الخاص .

وللحزب الشيوعي منهجية المعروفة الهادفة الى التطور
الاجتماعي الشامل ، ولكنه لا يهمل مع ذلك المطالب المباشرة
ذات الطابع السياسي او الاقتصادي . وكان الاتفاق ممكناً على
قاعدة هذه المطالب المباشرة الملحة . والرغبة الملحة في الاتحاد
تتطلب بعض التسامح ولكن القادة الاشتراكيين بدأوا بوجهون

الينا تهمة التفاهية والرجعية ، ولاننا كنا في سبيل صياغة منهج عملي ، اردنا ان يتضمن مجموعة من الالتزامات الدقيقة المحددة ، لا ان يكون سجلاً لوعود خلافة تلقى الى الناخبين لاغرائهم . وظهرت الايام صحة رأينا ، فالذين كانوا يتمدحون بالشجاعة والاقدام ، حين كنا نبحث في الصيغ العامة ، بدأوا يترددون ، ويتراجعون حين دارت الابحاث في المطالب الملموسة المحددة ، والذين كانوا يأخذون علينا تساهلنا عهد صياغة البرامج المشتركة بدأوا هم انفسهم يتهموننا بالعناد حين تشددنا في طلب التنفيذ الناجز . كان البرنامج المشترك يطالب باعادة الاطمئنان الى النفوس ونزع السلاح من المنظمات الفاشية والفرق القومية ، وحلها حلاً فعلياً ، والغاء القوانين التي تحد من حرية الصحافة ، وضمان الحريات النقابية والحقوق العمالية وتطبيقها على الجميع ، وكان يطالب بتأميم الصناعات الحربية والتعاون الاممي في اطار عصبة الامم ، وتوسيع نظام المعاهدات بين الدول ليشمل الدول كافة ، وكان يدعو الى النضال في سبيل السلام ؛ وعلى صعيد الاقتصاد ، كان البرنامج الموحد يرمي الى رفع مستوى معيشة الجماهير وتأسيس صندوق وطني للعاطلين عن العمل ، وتقص ساعات العمل اليومية ، وحرف رواتب تقاعدية ، للشيوخ من العمال ، ومراقبة اسواق الاعتدة الحربية ، واصلاح ضريبي وجمركي يأتي في الاتجاه الديمقراطي . هذه هي الخطوط الكبرى لبرامج الجبهة الشعبية الموحدة ، ولكن هذه البرامج ظلت رغم انتصار الجبهة في انتخابات ١٩٣٦ حبراً على ورق ،

في أكثر بنودها ، وماذا ؟ ذلك لأننا لم ننجح قط في التغلب على الروح العدائية عند القادة الاشتراكيين والراдикаليين الذين كانوا يعارضون في تعيين جان الجبهة الشعبية في المصانع والقرى ولم ننجح في حمل القادة على القبول بعقد مؤتمر وطني عام للجبهة الشعبية الموحدة مؤلف من مندوبين يعينون في الاجتماعات .

ولو اقيم هذا المؤتمر وانبثقت عنه لجنة وطنية لاستطاعت هذه اللجنة ان تشرف على تطبيق البرامج الشعبية التي كنا اول من قام بها والتي دلت على ايجابيتها وفعاليتها ، ولكن هذه الجبهة لم تبق اكثر من تفاهم بين «الرؤساء» ...

وكنا نواصل جهودنا لتوسيع الجبهة الشعبية ، وتركيز دعائم الوحدة العمالية ، ولم نتوقف قط عن العمل في سبيل الوحدة التامة وفي سبيل حزب عمالي واحد ، وكان علينا تحديد المبادئ الاساسية لهذا الحزب الموحد ، فقد رأينا ، من جهة ، ان سياسة الخيانة التي اعتمدتها الاشتراكية الديمقراطية ، ادت الى هزائم بروليتارية عاناها العمال في بلدان عدة ، وبخاصة في انتصار الديكتاتورية النازية في المانيا ، ومن جهة ثانية رأينا ان السياسة الثورية التي اعتمدها الشيوعيون قد ادت الى الديمقراطية السوفياتية ، بانية الاشتراكية . واخيراً : لا يستطيع الانسان ان يفكر بانشاء حزب موحد بلا انضباط حازم دقيق اقره العمال في حرية تامة ويمكن تطبيقه على الجميع ، وكان يمكن ان تلاقى صياغة وثيقة للوحدة العمالية تقدماً محسوساً ، ولكن القادة

الاشتراكيين لم يتحملوا يوماً استمرار المحادثات في منظمات القاعدة ولا اتحاده . وكانوا يعارضون في جعن مناقشاتنا ، بلجنة التوحيد ، علنية .

منذ زمن طويل ، والشطر المستنير من العمال الاجراء منتظم في نقابات . فالدفاع عن الحقوق العمالية ، مادية كانت ام معنوية ، والصمود دونها في وجوه اصحاب العمل ، والعمل الناضط المشترك لتحسين مصير الطبقة العاملة ، هي كلها اهداف العمل النقابي . فبوسع الحركة النقابية اذن ان تجمع في صفوفها جميع العمال الاجراء ، مهما كانت مذاهبهم السياسية ومعتقداتهم الدينية ؛ وعقيب الحرب العالمية الاولى زرع القادة الاشتراكيون ، وعلى رأسهم ديمولات ، الفتنة والشقاق في الاوساط النقابية ، فنشأ اتحادان عامان للعمل ، يتنازعان النفوذ على الطبقة العاملة .

وكان الحزب الشيوعي يؤازر جهود المناضلين والنقابات الداعية الى الوحدة ، لوضع حد للانشقاق ، وادى ذلك الى الاتفاق يوم ٢٧ ايلول ١٩٣٥ ثم الى قرارات مؤتمر تولوز التوحيدي (شباط ١٩٣٦) فنشأ (سى جى تى) واحد . فما لبث ان انضم اليه ما يزيد على خمسة ملايين عضواً من العمال ، ومن الثاني والعشرين الى الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني انعقد المؤتمر الثامن لحزبنا الشيوعي ، فمهد هذا المؤتمر لانتصار الجبهة الشعبية في الانتخابات التشريعية .

وكانت الانتخابات البلدية ، في نوار ١٩٣٥ ، والانتخابات

الاقليمية في السين قد اشارت الى تصاعد القوى الديموقراطية ،
وفي اثناء انعقاد مؤتمر حزبنا ، كنا نشعر بانتصار مقبل عظيم ،
في انتخابات نيسان ١٩٣٦ ، وفي ذلك المؤتمر ذكرت المندوبين
بأن ثرواتنا الوطنية الضخمة ، محصورة بأيدي اسر رأسمالية
معدودة ، ولذلك ففرنسا ، وهي من اغنى بلاد الدنيا واجملها ،
تجد نفسها على شفا الانحطاط والزوال ، بدلاً من ان تزدهر
وتسعد ، وتجد نفسها ممزقة لا موحدة . وضعيفة لا قوية .

لقد عمل التطور الرأسمالي طوال القرن التاسع عشر على
تركيز دعائم اقطاعية جديدة ، وهي اقطاعية المال ، انما اقل
عددًا من الاقطاعية الزراعية القديمة ولكنها اشد بأساً ، وامضى
سلاحاً ، فالرأسماليون يسلبون الحرفيين اموالهم ، ورؤوس
الاموال الكبرى تقضي على الصغرى وتمتصها . والتمركز
الرأسمالي الذي يقضي على مشروعات صناعية عدة ، يزيد في قوة
المشروعات الباقية ، وهكذا تنشأ مصانع عملاقة ضخمة تستخدم
الجمهير الساحقة من العمال الاجراء ، لقد حكمت الثروات
الناجمة عن عمل الاجيال الفرنسية اقلية من الطفيليين تستثمر
لصاحبها جماهير العمال ، فيعاني الشعب الفرنسي الضيق والبطالة
والبؤس ، فمن هم سادة فرنسا ؟

« في فرنسا اليوم حوالي خمسين الف شركة مساهمة يضاف
اليها بضع مئات من المصارف الخاصة وعدة آف من التكتلات
الصناعية التي استطاعت المحافظة على ما يشبه الطابع الفردي ،

ولكن اي هذه المؤسسات نجدها في المراكز القيادية وما عددها ؟

هناك حوالي ثلاثين شركة مالية ومثلها معدنية وعشرون شركة في كل من صناعة الفحم والمنساجم . وثمة ثلاثون شركة للكهرباء وعشرون شركة للتأمينات والضمان وعشر شركات للمنتوجات الكيماوية ومثلها للغاز والماء ، واخيراً تجد بعض الشركات الكبرى للخطوط الحديدية ، شركات النقل البحرية ، وهذه كلها لا تتجاوز المئتين عدداً ، وهي متحدة فيما بينها ، متصلة ، متخالطة ، يتلقى بعضها نفوذ بعض ، ويدعم بعضها بعضاً ، منشئة فوق آلاف الشركات الصغرى ، اسرة رأسمالية قائدة اسرة . ان اصحاب الاسهم في هذه الشركات المئتين ، وقادتها ، هم المئتا اسرة التي تسيطر فعلاً على مقدرات السياسة والاقتصاد في فرنسا .

لقد عرفت فرنسا ، منذ ١٣٠ عاماً ، ثلاث ثورات ، وغيوت نظام حكمها خمس مرات ، وخلال هذه الاضطرابات المختلفة ، وهذه الحضات والثورات ، حافظ سادة القوى المالية وخدمهم على ثباتهم وسلطانهم ، فتجسد فيهم ، خلال انظمة الحكم المختلفة ، سلطان رأس المال .

ان اصحاب « بنك فرنسا » الاثني عشر هم انفسهم مديرو الشركات ال ٧٥ وهم يتمتعون بمئة وخمسين مقعداً ، وهذه الشركات ال ٧٥ موزعة كما يلي :

٣١ مصرفاً خاصاً - ٨ شركات للضمان - ٩ للخطوط
الحديدية - ٨ مشروعات للخطوط البحرية ، - ٧ شركات
للمعادن وصناعتها - ٨ شركات لمناجم الفحم - ١٢ للصناعات
الكبائية - ٦ مشروعات متنوعة .

والرأسمالية تصب كلها في هذا الاتحاد الرهيب ، فحين
يجتمع هؤلاء القادة تمتد اصابعهم الاضططوبية الى جميع ارجاء
البلاد فلا تفلت ذرة من النشاط الاقتصادي من مراقبتهم
ونظراتهم المتفحصة ، انهم سادة البلاد الحقيقيون ، فهم يمنحون
الحكومة والمصارف والمشروعات ، القروض المالية ، او
يرفضون ، وهم يصرفون اوراق الخزينة المالية او يمتنعون عن
صرفها ، وهم يتلاعبون بالعملة ، فيحمون الفرنك او يرفعونه
او يخفضونه... فاجاثهم ومناقشاتهم تستوحي ، قبل كل شيء ،
مصالح المشروعات الرأسمالية المالية التي يمثلونها .

هذه هي القوة التي تتحكم بالحكومات وتعلي عليها رغباتها
اوامر حاسمة ، انها هي التي تقيل الوزارات فتخرق حرمة المفاهيم
الديموقراطية الانتخابية ، انها الاسرة الرأسمالية المحدودة التي
تقرض على شعب فرنسا حكومات تخدم رأس المال (١) .

كانت معركتنا ضد المئتي اسرة ترمي الى ضمان مستقبل
فرنسا ، وفي سبيل هذه الغاية كان علينا العمل على توحيد الامة

(١) موديس توريز - في سبيل سياسة فرنسية قومية .

الفرنسية ضد الثقات المسيطرة الأسرة التي تستثمر الشعب .

واعلن الحزب الشيوعي رأيه القائل بمقاومة تخفيض الاجور ، وتخفيض قيمة النقد ، مطالباً باخذ الاموال من اوني الثراء الفاحش ، مقترحاً ضرائب ضخمة تصاعدية على الثروات الكبرى بمعدل ٣٪ للثروات التي تجاوز ٥٠٠ الف فرنك الى ٢٠ بالمئة للثروات التي تتجاوز الخمسين مليوناً . وكنا نذكر بما قاله ماركس في هذا الصدد :

« ليست الضريبة التصاعدية تدبيراً بورجوازيّاً وحسب ، يمكن تطبيقه في صلب علاقات الانتاج الراهنة ، كبيرة كانت ام صغيرة ، بل ان الضريبة التصاعدية هي ايضاً الوسيلة الوحيدة لتوثيق روابط الطبقات المتوسطة ، في المجتمع البورجوازي ، بالجمهورية « الشريفة » ، وهي كذلك الوسيلة الوحيدة لتخفيض الديون العامة ، وقهر الطبقة البورجوازية العليا عدو الجمهورية (١) »

واعلنت في تقريرى ان الشيوعيين ، هؤلاء الاعميين ، ليفخرون اكبر الفخر ، بعظمة بلادهم واجادها التاريخية ؛ انهم يعتزون باسلافهم ابطل ١٨٩٣ ، ويعتزون بشوار شباط وحزيران ١٨٤٨ ، ويتمجدون بابطل « الكومونا » .

وانهم بوجهون تحية واحدة الى جماهير الفلاحين الكادحين ،

(١) كارل ماركس - صراع الطبقات .

والعمال المناضلين ، والنخبة المثقفة التي تألفت منها عظمة بلادنا
وإجادةها .

والشيوعيون يفضحون وبجاربون أولئك الذين يلطخون
تراثنا القومي ويدفعون البلاد الى دركات الانحطاط والتمول ،
فنحن الورثة الحقيقيون للفكرة الثورية التي نادى بها
الانسيكلوبيديون في اواخر القرن الثامن عشر ، وورثة المادية
الفلسفية التي جاء بها ديدورو وهيلفيتيوس وأولباخ . ونحن
امتداد لتلك الجبهة التي ناضلت عند طليعة الانسانية .

وعلى رغم الحونة والطفيليين ، وفي وجوههم ، وضد هم ،
نريد وحدة الامة الفرنسية . لقد اخذنا نشيد المارسييلاز عن
احفاد مهاجرين كوبلنتز وخلفائهم ، والمارسييلاز انبثق من
احشاء فرنسا الثورية ، فرنسا ١٧٩٢ ، فرنسا اليقوبيين
والجيرونديين ، الناهضين في وجه الملوك والاقطاعيين . وهذا
النشيد هو التعبير اللاهب عن ارادة الشعب الثورية ، عن وثبته
واندفاعه وبطولته وشخصيته ، انه هو الثورة...

واخيراً عكفت على بعض المسائل الداخلية في الحزب فقلت :
لقد سقى النضال حزبنا . فالنضال افرند الشيوعيين . ولكن
علينا ان نبذل جهوداً جديدة ونتقدم الى الامام ، علينا ان نجعل
حزبنا حزباً عظيماً يقود الجماهير ، ان يصبح حزبنا هو حزب
الجماهير . وحيال تدفق المنتسبين الجدد اضحت لقضية الملاكات
الحزبية اهمية كبرى :

اي الاعتبارات يجب ان يتودنا في اختيار الملاكات ؟

اولاً - الاخلاص العميق للطبقة العاملة ، والامانة للحزب ،
نبلوها في المعارك ، والسجون ، والاحداث الخطيرة والمحن .

ثانياً - الاتحاد الوثيق بال جماهير ، لا نريد نظريين متحذلقين ،
بل زعماء شعبيين يعرفون الجماهير حق المعرفة ، وتعرفهم الجماهير .

ثالثاً - روح المبادرة وتحمل التبعات ، والقدرة على الاتجاه
والتوجيه بسرعة ، واتخاذ القرار ، باستقلال ، في جميع المواقف ،
مهما كانت خطيرة ؛ والذي يخشى التبعة ليس زعيماً ، ومن
لا يحسن التدليل على روح المبادرة ليس بلشعياً .

رابعاً - روح الانضباط والنظام وصلابة البلشفي ، سواء
في النضال ضد العدو الطبقي ، او ضد الانحرافات عن خطة
الماركسية اللينينية ، وفي تطبيق جميع القرارات الصادرة عن
عضويات الحزب النظامية .

وختمت تقريرى بهذا الشعار الذي يعبر عن ارادة الفرنسيين
العميقة ، حتى ان اكثر الاحزاب حاولت تبنيه وهو : « عاشت
فرنسا حرة قوية سعيدة ! » ولكن حزبنا بين جميع
الاحزاب ، هو وحده الذي يستطيع ان يجعل من هذا الشعار
حقيقة حية ، ولهذا نضيف الى كلماته :

« كما يريدونها كما سيجعلها الشيوعيون » .